

نصوص مختارة للبطريرك إسطفان الدويهي

(بحسب التسلسل الزمني)

في أنّ الله غير المفحوص وغير الموصوف بذاته جعل معرفته ظاهرة في الخلائق

فَمَنْ أَحْسَنَ التَّأَمَّلَ فِي تَغْيِيرِ الأزمنة وموافقتها، ودوران الأفلاك واقترباتها، ومضادّة العناصر والتحامها، وعداوة الطباع واحتفاظها، وخضوع الخليقة السفليّة للعالية واستجابها، لا بدّ أنّه يُقرّر بأنّ لها علّة عاقلة وقادرة تُدبّرّها، لأنّ ما لا عقل له لا يمكن أن يُدبّر إلّا بعقل غيره، كالسهم الذي لا يصيب المرمى إن لم تُرسله يد رجل عاقل. وكذلك نرى أنّ الأشياء ذوات الحياة في حركة وتغيير دائمين: النبات من البزور والنبات. الطيور من البيض والبيض من الطائر. وكذلك البشر يتناسلون أحدهم من الآخر من غير أنّ أحداً منهم يتخلّد على الأرض. إذاً لا بدّ أنّ سلسلة هذا التناسل يكون لها بدءٌ أوّلٍ يُحرّكها وهو لا يتحرّك. وكذلك نرى أنّ طبع الإنسان يُفضّل سائر الطباع، وأنها كلّها تخضع له وتتعبّد لسلطانها، حتّى إنّ الشمس، التي تُفضّل غيرها، ما سمّاها السريان إلّا خادمة له. وضعف الإنسان واضح أنّه كلما ازداد فهماً وحكمة، ومالاً وحكماً، لا يستريح قلبه، بل يزداد عطشاً وطلباً إلى مزيدٍ ممّا معه. إذن لا بدّ أن يوجد آخر، أشرف وأفضل منه، يُروي عطشه ويكفيه، ويكون هو مكتفياً بذاته، وغير مُفتقر لغيره.

ثمّ إنّ كلّ واحد ممّا يُقرّر أنّ عمل الخير أفضل وأمدح من عمل الشرّ، وأنّ القوم الأشرار يزدرون ويظلمون، في أغلب الأوقات، الفاضلين المستقيمي الأفعال. إذن يجب أن يوجد أحد يُنصف بينهم ويُجازي كلّ إنسان على قدر ما يستحقّ. وهذا هو الله، الذي به تستغيث جميع الأمم في أوان الضيق، ومنه يترجّون المحافة ويستمدّون النجدة على الذين يغتصبونهم. ومن التأمل في الخلائق اقتبس الفلاسفة معرفة الله، وتحقّقوا أنّه عقل واحد، بسيط، أزليّ، غير متحوّل، بعيد عن الحسّ، ناجٍ من كلّ عَرَض، بدءُ الأشياء بأسرها، لا يُدرکه العقل ولا يصيفه لسان، يستحقّ السجود والكرامة من كافة الطباع.

وكذلك تُخبر كتب البيعة أنّ إبراهيم ردّل الأصنام، ورزق معرفة الله الواحد، وأيقن به من التفكّر بالبرايا. وسأل الإخوة الأنبا أنطونيوس من أين استمدّ العلوم الإلهية والمعارف الجزيلُ قدرها من غير قراءة ولا معلّم، فكان جوابه لهم: من التأمل في الخلائق التي رسم بها الباري ذاته وقدرته كما في المصحف. وتوهمّ مار أفرام أنّ الأشياء ناتجة من ذاتها، غير أنّه بالإمعان والتفكّر في البرايا توصل إلى معرفة الخالق كما يقول في الفصل الثامن: "إني رأيت منزلاً فانتبهت إلى القهرمان. رأيت العالم وقطنت للتدبير والعناية به. أبصرت سفينة محمولة بلا مدبّر يُرى. شاهدت أعمال الناس لا يتيمّ منها شيء خلوّاً من الإله الذي يدبّرها، وقطنت أنّه بتدبير الله تبت الكلّ، ومن الله نمت كلّ شيء على الأرض. ليس شيء على الأرض بلا رأس، لأنّ بدء الكلّ هو الله. الأنهار من العيون والشرايع من الحكمة

الإلهية. الأرض تعطي الأثمار لكن إن أمطرت السماء. هكذا لن يستطيع شيء أن يصير من ذاته. النهار يشتمل على شخص النور، لكنّه يحتاج الشمس لتكميله. هكذا المناقب الحسنة تصير من الناس، لكنّها تيمّ بالله. الشمس تحوي النور لكنّها تحتاج إلى السماء لراحتها، وإلى الله ليُثبَّتْها. ليس نورٌ بلا نار ولا ظلمة خلواً من ضباب، لأنّ كلّ الأشياء يحتاج بعضها إلى بعض، لأنّ هذا يحتاج إلى ذلك، وواحد هو غير المحتاج. ليس شيء من الموجودات ناشئاً من ذاته، إذ ليس يمكن لأحد أن يصنع ذاته. من يصنع ذاته قد كان قبل أن يصنع، فكيف صار أخيراً؟ لأنّ من كان قبل أن يصير ما احتاج أن يصير، لأنّه قد كان، فكيف يحتاج إلى آخر لاختراع ذاك الذي قد كان موجوداً؟ فالإله إذاً وحده غير مولود".

البطريك إسطفان الدويهي،

"المنارة السابعة: في الاستعداد لتقديس الأسرار، الشرح الثاني: في سرّ الإيمان، الفصل الثاني: في أنّ الله غير المفحوص وغير الموصوف بذاته جعل معرفته ظاهرة في الخلائق" في منارة الأقداس، الجزء الثاني، عُيِّن بطبعه لأول مرّة عن نسخة دير اللوزة رشيد الخوري الشرتوني، بيروت، ١٨٩٦، ص ٣٢-٣٤. ونشير إلى أنّ الناشر، رشيد الخوري الشرتوني، قد قام بتصحيح لغة الدويهي على ما ذكر في تقديمه للكتاب.

###

(إسطفان ابن الشدياق ميخائيل بن القسّ موسى الدويهي) من قرية إهدن. دخل المدرسة في أواخر السنة الحادية عشر من عمره. أكمل علوم الفلسفة واللاهوت في مجادلات: الأولى (كذا) على اسم الكردينال كبوني كفيل المدرسة. والثانية على اسم البطريك يوحنا الصفراوي. وعند خروجه من المدرسة سنة ١٦٥٥ في ثلثة [ثلاثة] من نيسان اختاره سادات المجمع عن الإنتشار [بجمع إنتشار الإيمان] أنّه يكون مُرسلاً بعلومه وذلك بهمة المعلم إبراهيم الحقلاني. وفي السنة الثانية بعيد البشارة رسمه البطريك يوحنا قسّاً على دير رأس النهر. فبذل مجهوده في التلمذ (أي التعليم) وتصنيف الكتاب عن سر القربان المقدّس.

وعندما قصد بيكات (FR Picquet) قنصل الملة الفرنسية بحلب رسامة القسّ أندراوس أحيجان ليكون مطراناً على طائفته السريانية بحلب كان هو المساعد له عند البطرك يوحنا. ثمّ في السنة ١٦٥٧ دخل معه في دخول الصوم إلى حلب فثبت ثمانية أشهر يعضد المطران المذكور في الشؤور والوعظ وكان يوعظ جماعته في كنيسة ماري إلياس. ولما رجع إلى جبل لبنان اخذ السكنى بدير مار يعقوب الحباش وكان خراباً فرممه (فرّمه) واستمرّ فيه خمس سنين. وفي سنة ١٦٦٨ بعد عيد الكبير قصد زيارة الأماكن المقدّسة فأخذ صحبته والدته وأخاه الحاج موسى. وعند العودة قدّمه البطرك جرجس إلى مطرنيّة الأفسسيّة بقبرس وبإذنه جال في رعايا الجبّة والزاوية وعكّار وقبرس يتعب على خلاصهم وببلاغة تعب في دورانه وفحص الكتب جمع كتاب تواريخ (كذا).

وعندما حكم الباريء بانتقال البطرك جرجس إلى مجازة تبعه مع الأبرار اختير على رضا رؤساء الكهنة والشعب ليسوس الكرسيّ الأنطاكيّ موضعه. وكان ذلك في عشرين من أيّار سنة ١٦٧٠ وهي سنة الوباء الكبير فسام الشمساس يوسف بن الخوري يعقوب الحصريّ قسيساً وسفّره إلى رومية لأجل رمي الطاعة إلى قدس البابا زخيا (أينوشنسيوس) العاشر ولطلب درع كمال الرئاسة. وخرج

وهو في الدورة إلى زيارة الرعايا وبنى الحارة التي بلزق كنيسة مار شليطا مقبس. وفي السنة ١٦٧٢ عاودَ إلى قنوبين وجاءه درعُ التثبيت من رومية مع القسّ يوسف وأوقفه عنده يازجياً (كاتبًا). ولو أنّ دهره كان عسيرًا فبذل كلّ جهده في جمع الرتب الكنائسيّة بتمامها. وبسط الشرح ليس فقط في سرّ القربان المقدّس بل في جمع النوافير المقبولة وقصص الآباء الذين ألفوها وفي الشرطويّات الكهنوتيّة وفي أسرار البيعة وفي تكريسات الكنائس والميرون وما يليها. وضبط جميع رسومات المواعظ الكنائسيّة بترتيب واضح ليمتيز بعضها من البعض وبرهن عن أصل الملة المارونيّة ودوام اتّحادها مع الكنيسة الرومانيّة.

البطريك إسطفان الدويهي، بقلمه

في " أثر جليل للبطريك إسطفانوس الدويهي" للأب لويس شيخو اليسوعيّ في المشرق، السنة ٢١ (١٩٢٣)، ص ٢٠٢-٢٠٣.

###

عن مار مارون: إنه برج^١

"عنقك كبرج داود المبني في المخزعات المعلق عليه ألف تُرس وكافة أسنة المقتردين". (نشيد الأنشاد ٤،٤)

كلّ بنيان بغير أساس مُزعزع، وكلّ قداسة بغير اتّضاع متزعزعة. حبة الحنطة إذا لم تموت [تمت] يقول الربّ إنّها تثبت وحدها وإن ماتت أنت بأثمار كثيرة، ونفس الإنسان إذ هي من ذاتها شاخنة ومتعظمة إذ لم تُمت هواها في الاتّضاع والطاعة والصوم والصلاة والصيانة تثبت وحدها كالحبة العريانة، وإنّ ماتت فصارت كالعود المغروس على بحاري مياه النعمة فتعطي ثمرها في حينه.

مار بولص فاحصًا لماذا الله بعض ناس تركهم في الكفر والهلاك وآخرين اختارهم للبشارى [البشارة] والخلاص يصرخ قائلاً: "إنّ الذين عرفهم موضعًا لدعوته إيّاهم قبل وسمّ والذين سبق فوسمّ، إيّاهم دعا، والذين دعا إيّاهم برّ، والذين برّ إيّاهم مجدّ"^٢. معنى قوله إنّ

^١ مقتطفات من إحدى عظات الدويهي البليغة، ألهاها في كنيسة مار الياس في مدينة حلب. ومعلوم أنّ البطريك جرجس البسبعلي أوفد الدويهي، أكثر من مرّة، إلى حلب يوم كان لا يزال بعد كاهنًا، فبقى هناك فترة يخدم الرعيّة، ويمارس نشاطه الرسوليّ، ويعلم في "الكُتاب المارونيّ" الذي أنشأه هناك. نشر العظة، كاملة، الأب فردينان توتل اليسوعيّ في مجلّة المشرق، السنة ٥٠ (١٩٥٦)، ص ٦٥٩-٦٦٧، نقلًا عن مخطوط بحوي، بين دفتيه، سلسلة مواعظ عربيّة للدويهي بالخطّ الكرشيويّ. ولقد حافظ الأب توتل على لغة "الواعظ" العربيّة التي استعملها في القرن السابع عشر، يوم كان إتقان العربيّة نادرًا جدًّا بين الكُتاب، ولا يُستثنى المسلمون منهم (راجع تقديم الأب توتل للعظة على الصفحتين ٦٥٨ و-٦٥٩ من المرجع ذاته). علّق الأب توتل، على العظة، بعض الحواشي التوضيحيّة التي سنّيتها في الهوامش كما وردت، على أن نضيف بين هلالين، أنّها من وضعه. وسنّبت كذلك الحواشي الأخرى الواردة التي تحيل إلى مواضع الإقتباسات في الأسفار المقدّسة، والتي يبدو أنّها من وضع الدويهي، من غير أن نضيف إليها أيّ ملاحظات. لكننا سنضع، في متن النصّ، بعض الكلمات في صيغتها الصحيحة بين معكوفين []، جنبًا إلى جنب مع الكلمات الأصليّة تسهيلًا لقراءتها، وضبطًا للمعنى. وفي نصّ العظة عدد من العبارات السريانيّة أثبتتها الأب توتل، بين مزدوجين، بأحرف عربيّة، وقد أبقينا عليها كما هي واردة.

^٢ روم ٨، ٣٠.

الذين الله رآهم في سبق علمه أنّهم كانوا موضعاً لدعوته ويقبلون بشارته ويتدرّجون في الفضائل إيّاهم فسبق وسَم من قبل تكوين العالم، والذين من قبل تكوين العالم سبق وسَم إيّاهم دعا من بطون أمهاتهم، والذين دعا من بطون أمهاتهم بنعمته إيّاهم برحمته في حياتهم والذين برّر في حياتهم إيّاهم مجدّ في الملكوت. (أشعيا ٤٩)

هذا بنفسه نادى به أشعيا النبي قائلاً إسمَعَن لي أيّتها الجزائر وانصتوا أيّها الأمم: من بعيد الربّ دعاني ومن الأحشاء ومن بطني أمّي ذكر اسمي وجعل فمي مثل السيف الحادّ وتحت سترة يده أخبأني، جعلني مثل سهم مختار وفي جعبته سترتني وقال لي: عبدي أنت يا إسرائيل وبك أتمجد. ناظرًا الله في سبق علمه أنّ الأب الطاهر والكوكب المنير الزاهر مار مارون سيكون موضعاً لدعوته، أنّه يرّد الشعوب إلى الطاعة وهو يقيم حياة النساك في بلاد الشام، وأنّه يصون البيعة في رهبانه، فسبق وسَمه قبل أن يأتي إلى العالم، من بعيد دعاه من الأحشاء وبطن أمّه ذكر اسمه، وكان الذين دعاهم إيّاهم برّر، كذلك جعل فمه كالسيف الحادّ وتحت سترة يده أخفاه، جعله مثل سهم مختار وفي جعبته سترته وقال له: عبدي أنت يا مارون وبك أتمجد، وفي الحقّ يا إخواني انكان [إن كان] من الأثمار تُعرف الشجرة، أنّ من تأمل جيّدًا عظم القداسة التي حواها هذا البارّ، وكثرة الخيرات التي من أجلها استفادت بها البيعة المقدّسة والأنعام الجزيلة التي منه وبوساطته نالت وتنال كلّ يوم طائفتنا المارونيّة، يثبت حقيقة أنّ ما هو فقط فم ناطق وعمود بيعتنا المقدّسة، كما كلّ يوم تسمّيه الكنيسة، "فوما مليلا وعمود دعيتو ديلك قديشتو". بل نعم إنّه بنا [بني] برجًا قويًا في وجه العدو، ولذلك صحّ فيه جيّدًا قول الربّ إلى البيعة عروسته: إنّ عنقه كبرج داود المبني [في الجرزعات] المعلق عليه ألف ترس وكافة أسنة المقتدرين. فأبّين لمحبتكم أنّ البارّ مارون كان حقًا كالبرج.

وأنّ عليه معلق ألف ترس لأجل كثرة (القديسين الذين خرجوا من تعاليمه وإشاراته). وأنّ في هذا البرج المشيّد، كافة أسنة الجبابرة المقتدرين، أي من جميع جنوس وأصناف القديسين الذين تشرفوا في بيعة الله ضدّ الكفّار والأرارقة. أعطونا نسطه! واطلبوا من هذا القديس الطوبان ومن ستنا والدة الخلاص ليطلق الله لساني قائلين السلام لك.

القديس مار مارون كان منشؤه من هذا بلاد الشام، كالذي اختاره الله، من والدين مسوّزين عابدين المسيح، تربّي في كافة التقوى ومحافة الله وبعدهما حوى العلوم المفضّلة والأعمال الناجحة، وصل إلى ملتقى الدروب التي هنّ الشبويّة وبها بيان خلاص أو هلاك أكثر الناس. فإنّ من ناحية الواحدة ينظر طريق الخلاص ديقًا، وما يؤدّي إلى الهلاك وسيعًا عريضًا، وفيه ثلاثة شباب يدعونه أن يكون لهم رفيقًا: أحد هؤلاء هو الجسد، الثاني العالم، والثالث هو الشيطان، الذين هم الثلاثة أعداء الذين يودّونا إلى الهلاك.

الشبّ الأوّل الذي هو الجسد، فالذي كان أقرب إليه كان يقول له: أعطني يدك يا صديقي وكن لي رفيقًا لأنّ في هذا الطريق مواكيل مفتخرة وكروم عامرة وثياب ثمينة وشهوات ولذات لم تعطّ إلاّ الذي يرافقي، وانكان [وإن كان] تريد تمضي في ذلك الطريق الدقيق أقول لك الصحيح: إنّ ما فيه إلاّ جوع وعطش وعري وزمهرير وهدم الشبويّة.

^١ اسمعوا.

^٢ يغلب على سكان لبنان الشماليّ المزج في لفظ "د" و "ض" ومنه الغلط في الإملاء.

كان يتقدّم إليه الشبّ الثاني، وفي يده باقة زهر ويقول له : إنّ كان تشتهي القضا، والرضا أن يكون لك أولاد، أن ترث بسات [ين وقرى]، أن تقسيم زرعاً لبيت أبيك، أن تأخذ أموال وترتفع بدراجات رفيع [ة]، كن رفيقاً لنا ، لأن أقول لك الصحيح : إنّ الطريق الآخر ما فيه إلا حزن وعنا [وعناء]. ما فيه إلا قلةً ودقيقة [وضيقة]، ما فيه إلا كد وتعب، وكما ترى أنّه ديقاً [ضيّق]، كذلك لم يمكن أن يدخله إلا من كان كالطفل.

ثمّ تقدّم إليه الشبّ الثالث الذي هو الشيطان وقال له: إنّ هذه المملكة كلّها قد عُطيت لي، فإنّ تبعتني عطيتك مهما اشتهيت من عزّ وكرامات، من ولاد ورتاسات، وإنّ ما ردت ترافقنا، وإلا أنا أقيم عليك كلّ العالم، أفتح طريق أبواب جهنّم، أشعل فيك نيران الشهوات، أفلق نومك في الأحلام والخيالات، وركب [وأركب] كلّ العناصر ضدك، لتحرقك الشمس في إشعاعها، لتدنقك الغيوم في أمطارها، لتقلقك الأرض في وحوشها، ولا تريحك الأهوية في سمومها.

ومن الجهة الأخرى نظر البارّ مارون درب ديق، وما فيه إلا طفل صغير، التي هي نعمة الله، فهذا ولو كان حافي عريان، نظر أنّ كلّه كان أنوار، ولو أنّ باب دربه كان ديقاً، نظر أنّ فيما [في ما] بعد كان وسيعاً، ملان فرحاً وسرور.

فلما تأمل هؤلاء الأربعة، قلع عنه ثياب العالم، تفل في وجه الشيطان، وتزترّ على جسده في (بالمسح) وسلّم يمينه وقلبه في يد ذلك الطفل، قائلاً مع الحكيم: إنّ اسم الربّ هو لي برج حصين، وإليه يسير البارّ والقويّ، وكما تنظرون في لحظة عين، هذا البطل السجيع انتصر من الجسد، من العالم، ومن الشيطان، وخرج إلى البريّة. لم يطلب شيئاً إلا نعمة الله وإرادته.

من هذه المستشفرة كمثل الصخر، جميلة كالقمر، منتخبة كالشمس، مجزعة كالصفوف المعدّة !

يُقرأ في كتاب الخليفة أنّ ابن آدم قائم لما تأمل أنّ البراري لم تنسكن من الوحوش وهوال الدهر، اتّخذ للوقت أن يبني له مدينة لحمي نفسه وأولاده من مصائب الزمان، وكذلك يفعلون [يفعل] جميع الناس، وأما القديس مار مارون، ولو أنّه كان يقدر يعمر له بيتاً، أم يتأوى في مغارة، أم يلتجئ إلى شقيف، تشهد لنا سيرته أنّه ما راد يسكن إلاّ تحت جوّ السما، ليعلمنا أنّ الذي كان كلّ اتكاله في الله، ما يصلح له يغطّي وجه السما عنه ، متشابهاً في الربّ الذي قال: إنّ للتعالب جحوراً ولطير السما أوكاراً فأما ابن الإنسان، فليس له موضع يسند رأسه، كذلك البارّ مارون، كالذي كان حصن مانع، ما احتاج إلاّ حماية غيره، وكانت الطهارة وكافة الفضائل هكذا راسبين في قلبه، حتّى أنّ لزمه الشعب والإخوة الذين ارتأوا إليه، أنّه يصير كاهناً، ومن هنا ارتاد في التعب والكّد في كرم الربّ حتّى كنت تقول حقاً: إنّ كبرج داود المبني في المرامي، المعلق فيه ألف ترس، وكافة أسنة المقتدرين.

كان هذا البلد بعده ملان [ممتلئاً] من الكفار عبّاد الأصنام ومن الشمسيّين عبّاد الشمس، ومن تُباع مرقيان^١ الهرطيقتيّ [...]

فلكن لئلاّ الشيطان يرجع مرّة أخرى إلى ذلك، قدّسه القديس بيتّا لله، والذي ما كان يعيش إلاّ تحت جوّ السما، ليقهر الشيطان، جعل سكنته من ذلك الآن في ذلك الهيكل قائلاً: من بيت داود رفعتني على الصخرة، هديتني وصرت لي رجاء وبرجاً قوياً في وجه العدو، فأسكن في مسكنك إلى الأبد. [...]

^١ مرقيانوس أو مرقيون Marcion ولد في سينيوب (بلاد بنطس)، فيلسوف نشر في مصر والشام وفارس تعاليم آل أمرها إلى مذهب ماني، توفي حوالي سنة ١٥٠ م.

حتى أنّ شهد تاودوريتوس^١ أسقف قورس، الذي كان من جيله وفي بلاده، أن شاعت أخبار القديس في آذان كلّ أحد، وامتدّ مجده في جميع الأقطار، حتى إنّ من كلّ بلاد ومكان كانت تأتيه الناس، البعض ليتأملوا القداسة الراسبة في روحه، البعض ليتغايروا ويتمثلوا في فضائله، والبعض حتى ينالوا الشفا والصّحة من أمراضهم. فيذكر تاودوريتوس الأسقف، أنّ في رسم الصليب لا غير، كان يبري من جميع الأوجاع والعاهات كلّ ذو جنس وشكل، كانوا يأتوا العميان ويرجعوا ناظرين، يأتوا الذين في الحمّة والسخونة، الذين في البرص والتجديف، والذين كانوا متعذّبين من الشيطان، وكلّ هؤلاء وأشباههم يردهم متعافين ممجّدين الله .

لكن نقرأ في قصّته أنّ ما عطاها الله قوّة الشفا فقط، بل إنّه كان يعرف في الغائب ويذكر كلّ واحد في خطاياهم الذين من أجلهم كان يناديه الله، ولذلك لم كان يُبري ذوي العاهات إذ لم يندموا أوّلاً على خطاياهم، إذ لم يرجعوا إلى الله من كلّ قلبهم، وفي هذا النوع كان يُبري أوّلاً الروح ثمّ الجسد. ومن ينكر أنّه ما كان برحاً قويّاً كبرج داود المبني؟

فيسأل أحد، يا أبونا، ماهي هذه الألف ترس وكافّة أسنة الجبابرة المقتدرين الذين في برج داود متعلّقين؟ فأجوبهم: إنهم الرهبان الطاهرين والقديسين المختارين، الذين خرجوا من تعليم البارّ مارون. مذكور في كتاب الأيام أنّ لَمّا يوسافات^٢ تقلّد حكم يهوذا أرسل كهنة وقوّاد العساكر ليصنّوا كلّ المدن ويعلمونهم ناموس الربّ، كذلك البارّ مارون، بعدما أقام مدارس كثيرة للفضائل، ونصب بساتين كثيرة في الحياة الملائكيّة، أمرهم يطوفوا في كلّ هذه البلدان عن أدناس^٣ القائد، مذكور أنّ كان تحت يده ثلاث كرات رجال أشقياء، وماذا يخطر لكم في البارّ يعقوب^٤، تلميذ مار مارون، فإنّ هذا بعد ما تلمذ من معلّمه أخذ السكنى في البراري ولا راد [أراد] يتأوى تحت ستاره بل تحت جوّ السما كمعلّمه، ولا كان يأكل إلّا عدس مبلول فقط، ولا كان يجلس فقط [قطّ]، بل قائماً دائماً على قدميه، تحت كفيّات الأهوية المختلفة، مثقلاً جسده بحديد ثقيل في الغاية، وقام [وأقام] بنت فلاح بعد ما كانت ماتت، ولَمّا الأسقف تاودوريتوس تدايق [تضايق] من تبايع مرقيان الهرطيقيّ حتى إنّ الشيطان كان [كذا] يجّهّ يضطهده، نجا بصلوات هذا البارّ.

[...]

ولكن كان يفرغ الليل والنهار، ولم أفرغ أنا عن فضائل أنبا مارون وتلاميذه، خذوا تاودوريتس وسنكسار الروم، واقرأوا أفضاص القديس إبراهيم وأوسابيوس، وأسكليبيس، وطاليلالوس، وماراس، وسلمان، وسمعان، وغيرهم والذين تغايروا من مارون وتلاميذه، وشرفوا هذه كورة حلب وجيرتها، في فضائلهم وديورتهم.

حتى إنّ يوحنا فم الذهب الأنطاكيّ، الذي في شعاع علومه، وضيّا قداسته أثار الشرق والغرب، ولو أنّ ما هو مذكور أنّ كان تلميذاً لمار مارون، هو محقّق أنّ لما أنفؤه من كرسي أنطاكية، رسل [أرسل] مكتوب إلى أنبا مارون طالباً منه الدعاء والمعونة.

فماذا يخطر لكم إن كان هؤلاء القديسين إلّا تراس معلّقة في هذا البرج المكرّم، مثل برج داود المبني في المجاعز المعلق في ألف ترس وكافّة أسنة المقتدرين!

^١ و ثيودوريتوس Theodore ٣٩٣-٤٥٨. أسقف قورش. من كتبة الكنيسة السريانيّة، قاوم النسطرة في المجمع الخلقيدوني. له ميامر وتاريخ الكنيسة.

^٢ يوسافات. ١ الأيام ١١، ٤٣.

^٣ أدونا ٢ الأيام ١٧، ٨.

^٤ يعقوب ذكره ثيودوريتوس.

وما هذه أسّنة الجبابرة المقتدرين إلاّ الديورات والصيّر التي أقامها مار مارون وتلاميذه، في مدينة قورس، في قرية جرجاره[؟] في قرية [قرية] هليمة [؟] في جبل أوليمبوس وفي قمم الجبال، وهناك كانوا كالأبرجة يحاربون الجسد والعالم والشيطان ويجدّوا إلى خدمة الله.

كان مرادي تقرّأوا سيرة القديسة طومانية تلميذة مار مارون، أم البازّة مارينا أمّ القديسة كوره الحليبات¹ وتنتظرون ما هو مؤرّخ أن لست [ليس] فقط الرجال بل أيضًا النساء كانوا تركوا العالم والبعض منهم يستحبسوا وحدهنّ وأخرات يسكنوا في الديورة والأجبال، والآخرات جعلوا بساتينهم ديوره، حتّى إنّ في بعض مواضع وصل عددهنّ إلى مائتين وخمسمائة، ومن أين كلّ هذه العبادة إلاّ بواسطة معلّمهم الجليل مار مارون؟ إذا حقًا أنّ في هذا البرج الحصين "ألف سكرين تدين علو كل شلطا جبرا" كان معلق فيه ألف ترس، وكافّة أسّنة المقتدرين، وكان يقدر يقول مع عروسة المسيح : " أنا حورا وثدى مجدلا"؛ هذه العروس التي تبان أمام الناس أنّها صغيرة ولا ثديين لها هذه هي البرج المبني في المعجزات، وثدياها كالأبراج أنا هذا "وثدى مجدلا" فإنّ رهبانه قاموا البيعة بالأبراج المشيّدّة".

البطريك إسطفان الدويهي،

من مواظ الدويهي: "عن مار مارون: إنّه برج" في "إسطفانوس الدويهي الواعظ في حلب" للأب فردينان توتل اليسوعي في المشرق، سنة ٥٠ (١٩٥٦) ص ٦٥٩ - ٦٦٧.

####

سرقة الخزينة السلطانيّة في عكّار وجود [وجور] الباشا جعفر وإبراهيم باشا بالأمراء اللبنانيين والحبيشيين والدروز. الأمير

فخر الدين وأخوه الأمير يونس والأمير سيف الدين. المدرسة المارونيّة

في سنة انغه (أي عام ١٥٨٥م) وثب قوم أردياء على خزنة السلطان وهي سايرة إلى اسطنبول فنهوها، في جون عكّار، لموضع ذلك خرج الأمر بأنّ جعفر باشا الطواشي بجمع العساكر من سواحل البحر، من صيدا لحمص، على يوسف باشا ابن سيفا. فحرقوا بلاد عكّار. فعظمت به المشتكية أنّه ظلم البلاد إلى إبراهيم باشة مصر الذي تولّى الوزارة العظما: «فجمع العساكر من حلب وشام ومصر وقبرس في مرج عرموش في زمر وطبول وملاعب وسناجق ملوكيّة حتّى ارتعب منه كلّ بلاد العرب، وقُدّمت الشكايات في الأمير محمّد بن عسّاف وفي الدروز وأولاد حبيش أنّهم شلّحوا الخزنة. فبعث طلبّ الغرماء من الأمير قرقماس بن معن، ومسكوا دروب البحر، والبقاع على الدروز وقتلوا خلقًا كثير.

¹ الكلام دليل على أنّ الواعظ يذكر السامعين الحليبين بقديسهم فينال الاستحسان. وروى تاودوريتوس في تاريخ الرهبانيات، فصل ٣٠، قال: اقتدت بحياة مار مارون الإلهي العجيبة دومنية التي نصبت في بستان أبويها كوخلًا صغيرًا وفيه كانت تقضي نهارها في البكاء... ويُعيّد لها في ١ آذار. ثمّ القديستان كورا وماريانا اللتان يُعيّد لهما في ٨٢ شباط.

فحضر عليه الأمير محمّد ابن جمال الدين من عرامون الغرب، وابن عمّه الأمير مندر من عبيه، والأمير محمّد ابن عسّاف من أغزير. وأمّا الأمير قرقماس (فيّاته) هرب إلى مغارة من بلاد الشوف، فمات فيها عن ولدين وهما الأمير فخر الدين وأخوه يونس، بل حضر عليه (أي الوزير) عقّال الدرّوز عند عين صوفر، فَبَاقَ [عَدَرَ] فيهم وقتل منهم نحو خمسمائة نفس. وأمّا الأمراء الذين أعطاهم الأمان وحضروا عليه أخذهم صحبته إلى نصف اسطنبول. فقبلهم حضرة السلطان مراد ابن السلطان سليم بحلمٍ وقرّر على أمراء الغرب بلادهم، وعلى ابن عسّاف آيالة طرابلوس بتمامها دون المدينة، وعادوا إلى مواطنهم بسلامة.

وفي هذه الأحوال أرسل المير سيف الدين التنوخيّ أخذ إلى عنده للشوف أولاد أخته الأمير فخر الدين وأخوه المير يونس. وعند نهاية الستّ سنين رجع الأمير سيف الدين إلى عبيه في الغرب، وولّى الأمير فخر الدين على الشوف. وأمّا الأمير محمّد بن عسّاف عندما عاود من اسطنبول أخذ إلى عنده الشيخ أبو قانصوه بن حماده وأعطاه حارة في أغزير. والأمير محمّد عمّر قصيرًا في أغزير جاب معه المعلّم من اسطنبول، ويقال إنّه تكلف عليه أربعة عشر ألف قرش ما عدا الفعالة. وإنّ في الشام ودائرتها ما كان له شبيهه. وقتًا (أي جلب له الماء [بقناة]) الماء من نبع المغارة وعمّر بقره جامع.

وفي هذه السنة البابا غريغوريوس أقام في مدينة رومية المدرسة التي باسم الموارنة وفي تلك السنة مات. وما استطاع يعاين (أن يعيّن) لها علوفة [ما يتوجّب من المصاريف والتكلفة] إلا من الخرج الذي يخصّ صُفْرَتَهُ (مائدته). ثمّ تخلف بعده البابا كسوسطوس، وكان لست (ليس) بأنقص جودة ومحبة لدى الكرسي الأنطاكيّ من الذي سلّف قبله. فرتب لها مدخول يكفي خمسة عشر نفس.

البطريك إسطفان الدويهي،

تاريخ الأزمنة، نشرة لأوّل مرّة وعلّق حواشيه الأبائي بطرس فهد، جونبة، لبنان، مطابع الكُزَيْم الحديثة، ١٩٧٦، ص ٤٤٧-٤٤٩.

####